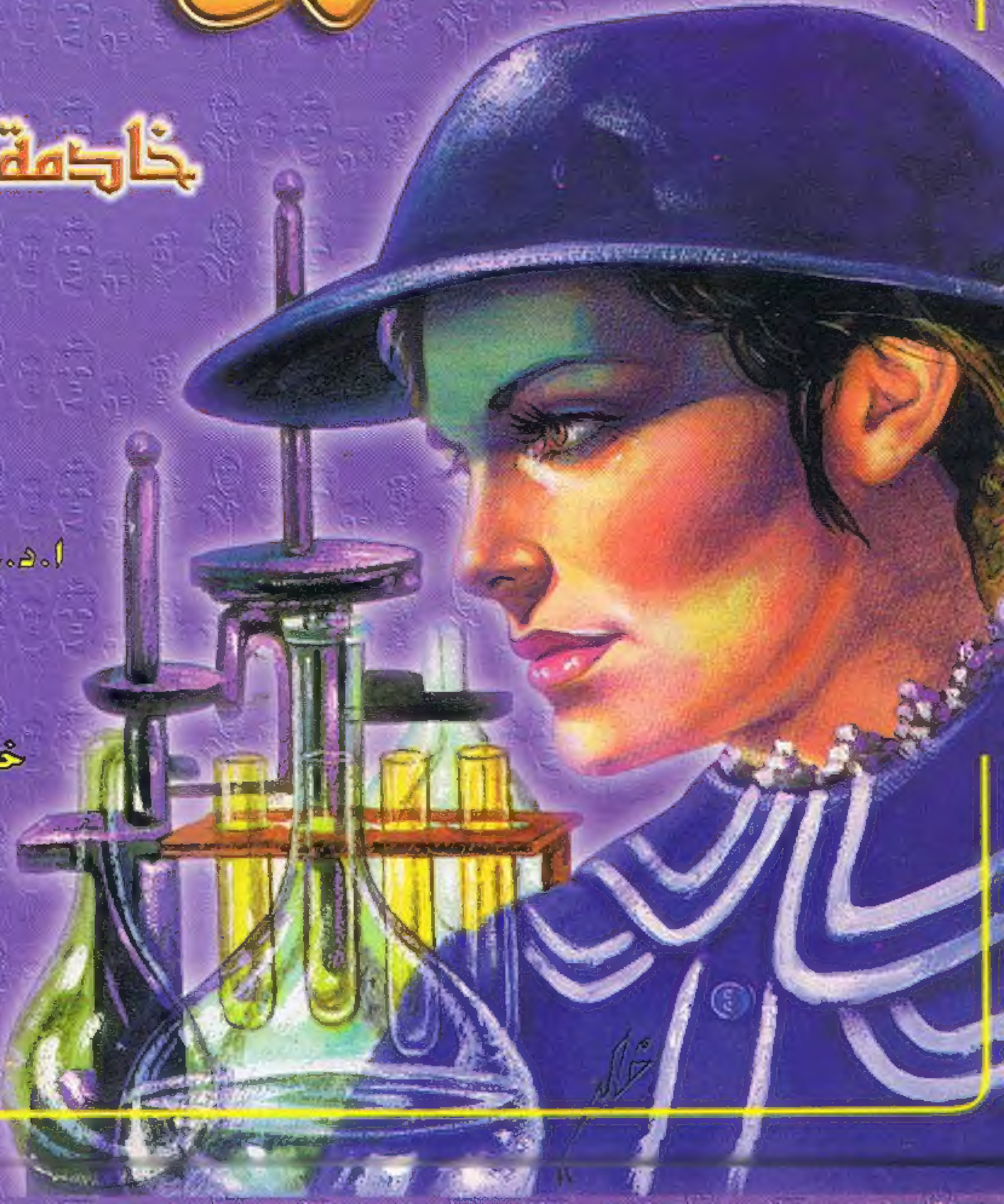
نساء فى القمة

مارى كورى

خادمة الإنسانية

تأليف
ا.د.على عبد المنعم

رسوم
خالد عبد العاطى



سفير

نساء فى القمة

مارى كورى

خادمة الإنسانية



تأليف

أ.د . على عبد المنعم

رسوم

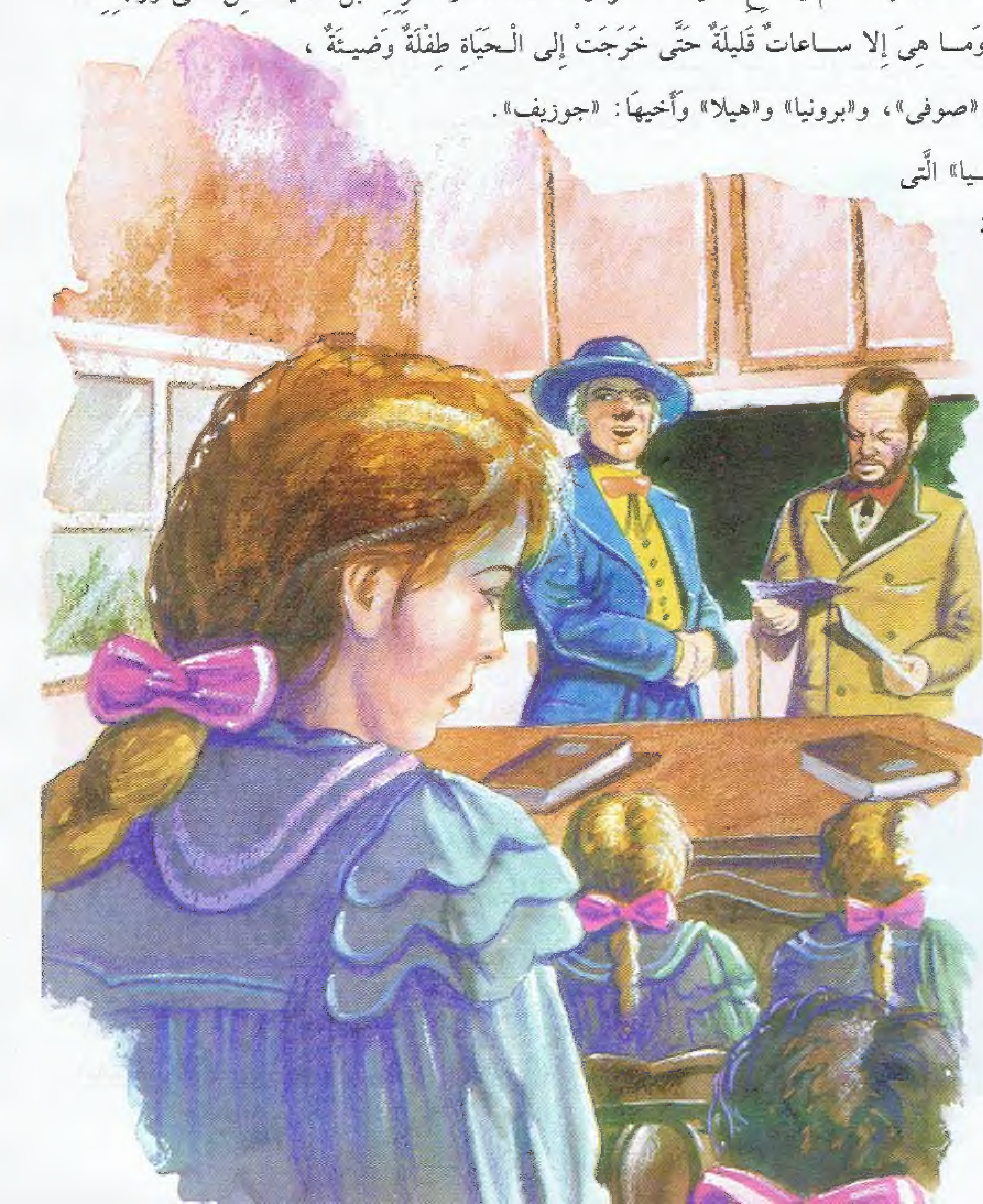
خالد عبد العاطى



رقم الإيداع : ٥٣٩٥ / ٩٧

الترقيم الدولى : ISBN 977-261-522-2

أَشْرَقَتْ شَمْسُ السّابِعِ وَالْعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ أكتوبرَ عامَ ١٨٦٧م، وَراحَ السَّيِّدُ «سكلودوفسكا» مُدَرِّسُ الطَّبيعَةِ يَتَهَيَّأُ لِلْخُروجِ إلى عَمَلِه، ولَكِنَّهُ سَمِعَ فى الْحُجرَةِ الْمُجاوِرَةِ أَنينًا وَصُراخًا؛ فَقَدْ كانَتْ زَوْجَتُهُ -رَئيسَةُ مَعْهَدِ الْبنات- حامِلا فى أَيَّامِها الأَخيرَةِ، وَيَبْدو أَنَّ آلامَ الْوَضْعِ قَدْ فاجَأَتْها. لَمْ يَسْتَطِعِ السَّيِّدُ «سكلودوفسكا» مُغادَرَةَ مَنْزِلِه قَبْلَ أَنْ يَطْمَئِنَّ عَلى زَوْجَتِه، وَيَعْهَدَ بِهَا إِلى يَدِ خَبيرَةٍ مُدَرَّبَةٍ. وَما هِيَ إِلا ساعاتٌ قَليلَةٌ حَتَّى خَرَجَتْ إِلى الْحَياةِ طِفْلَةٌ وَضيئَةٌ، هِيَ «مانيا»، جاءَتْ بَعْدَ أَخَواتِها: «صوفى»، و«برونيا» و«هيلا» وأَخيهَا: «جوزيف».



كانَ ذَلِكَ فى مَدينَةِ «فارسوفيا» الَّتى تُسَمَّى الآنَ «وارسو» عاصِمَةَ «بولندا»، الَّتى كانَتْ فى ذَلِكَ الْحينِ واقِعَةً تَحْتَ سَيْطَرَةِ الاسْتِعْمارِ الرُّوسِيِّ.

فى هَذا الْجَوِّ الْمَشْحونِ بِالتَّوَتُّرِ نَشَأَتْ «مانيا»، وَكانَتْ شَديدَةَ الذَّكاءِ، مَشْغوفَةً بِالقِراءَةِ، مُغْرَمَةً مُنْذُ صِباها بِالكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، فَقَرَأَتْ مِنْها كُلَّ ما عَثَرَتْ عَلَيْهِ فى مَكْتَبَةِ والِدِها مُدَرِّسِ الطَّبيعَةِ، كَما كانَتْ تَقْرَأُ قِصَصَ الْمُغامَراتِ فى وَقْتِ فَراغِها، وَلأَنَّها كانَتْ مُتَفَوِّقَةً جادَّةً، تَكْرَهُ الاسْتِعْمارَ وَتَنْفِرُ مِنْهُ - كانَ الْمُعَلِّمونَ يُصَدِّرونَها لِتُجيبَ عَنْ ما

يُوَجِّهُهُ الْمُفَتِّشُ الرّوسِىُّ مِنْ أَسْئِلَةٍ، يَتَصَيَّدُ بِها أَخْطاءَ الْمُدَرِّسِينَ، وَيُدَبِّرُ لَهُمُ الاتِّهامَ بِالتَّحْرِيضِ عَلى الثَّوْرَةِ . . فَكانَتْ «مانيا» عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ مُدَرِّسِيها، تُجِيبُ عَنِ الأَسْئِلَةِ بِبَراعَةٍ فائِقَةٍ، وَتُحْسِنُ التَّخَلُّصَ الرّائِعَ مِمّا يَنْصِبُهُ لَها الْمُفَتِّشُ مِنْ شِراكٍ، فَلا يَمْلِكُ إِلا الْعَوْدَةَ خائِبًا.

أَتَمَّتْ «مانيا» دِراسَتَها الثّانَوِيَّةَ بِتَفَوُّقٍ بارِزٍ، أَتاحَ لَها الْحُصولَ عَلى وِسامٍ تَقْديرِىٍّ مِنَ الذَّهَبِ، وَكانَ عُمْرُها لا يَتَجاوَزُ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ. لَكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَلْتَحِقَ بِالْجامِعَةِ؛ فَقَدْ كانَتْ لا تَقْبَلُ الْبَناتِ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسافِرَ إِلى «باريس» لأَنَّ مَوارِدَ والِدِها ضَيِّقَةٌ، لا تَكادُ تَكْفى لِضَروراتِ الْحَياةِ فى «وارسو» فَكَيْفَ بِالسَّفَرِ إِلى مَكانٍ بَعيدٍ؟ لَقَدِ اضْطُرَّتْ والِدَتُها أَنْ تَعْمَلَ فى صِناعَةِ الأَحْذِيَةِ إِلى جانِبِ عَمَلِها الأَساسِىِّ رَئِيسَةً لِمَعْهَدِ تَعْليمِ الْبَناتِ؛ كَىْ تُعِينَ زَوْجَها فى تَوْفيرِ الضَّرورِىِّ مِنَ الطَّعامِ وَالْمَأْوى لأَبْنائِهِما. الأَمْرُ الَّذى أَغْرى بِها داءَ السُّلِّ فَقَضى عَلَيْها، وَعَلى الابْنَةِ الْكُبْرى «صوفى»، فَخَيَّمَ الْحُزْنُ عَلى الأُسْرَةِ، وَبَسَطَتِ الْكَآبَةُ عَلَيْها رِداءَها؛ وَلَكِنَّ الأَبَ كانَ عاقِلا حَكيمًا، فَعَمِلَ عَلى التَّخَلُّصِ مِنْ جَوِّ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ، وَاسْتَضافَ بَعْضَ الطُّلّابِ فى نِصْفِ غُرَفِ الْمَنْزِلِ، لِيُؤَمِّنَ دَخْلا مَعْقولا، وَدَعا بَناتِهِ إِلى اسْتِثْمارِ الْوَقْتِ، فَكُنَّ يُعْطِينَ دُروسًا مُقابِلَ أَجْرٍ زَهيدٍ.



مَرَّتِ الأَيّامُ بَطيئَةً مُتَثاقِلَةً، وَالْتَحَقَ «جوزيف» بِكُلِّيَةِ الطِّبِّ، وَشُغِلَتْ «هيلا» بِالْغِناءِ وَالْموسيقا، وَبَقِيَتْ «برونيا» و«مانيا» تُفَكِّرانِ فى مُسْتَقْبَلِهِما، وَتَبْحَثانِ عَنْ وَسيلَةٍ لِلتَّغَلُّبِ عَلى ما يَقِفُ أَمامَهُما مِنْ صُعوباتٍ . . إِنَّ «برونيا» تُرِيدُ أَنْ تَدْرُسَ الطِّبَّ، وَ «مانيا» تَرْغَبُ فى دِراسَةِ الْعُلومِ، وَلا سَبيلَ لِذَلِكَ إِلا بِالسَّفَرِ وَالإِقامَةِ فى باريس، وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبيلُ؟ قالَتْ «مانيا» لأُخْتِها:

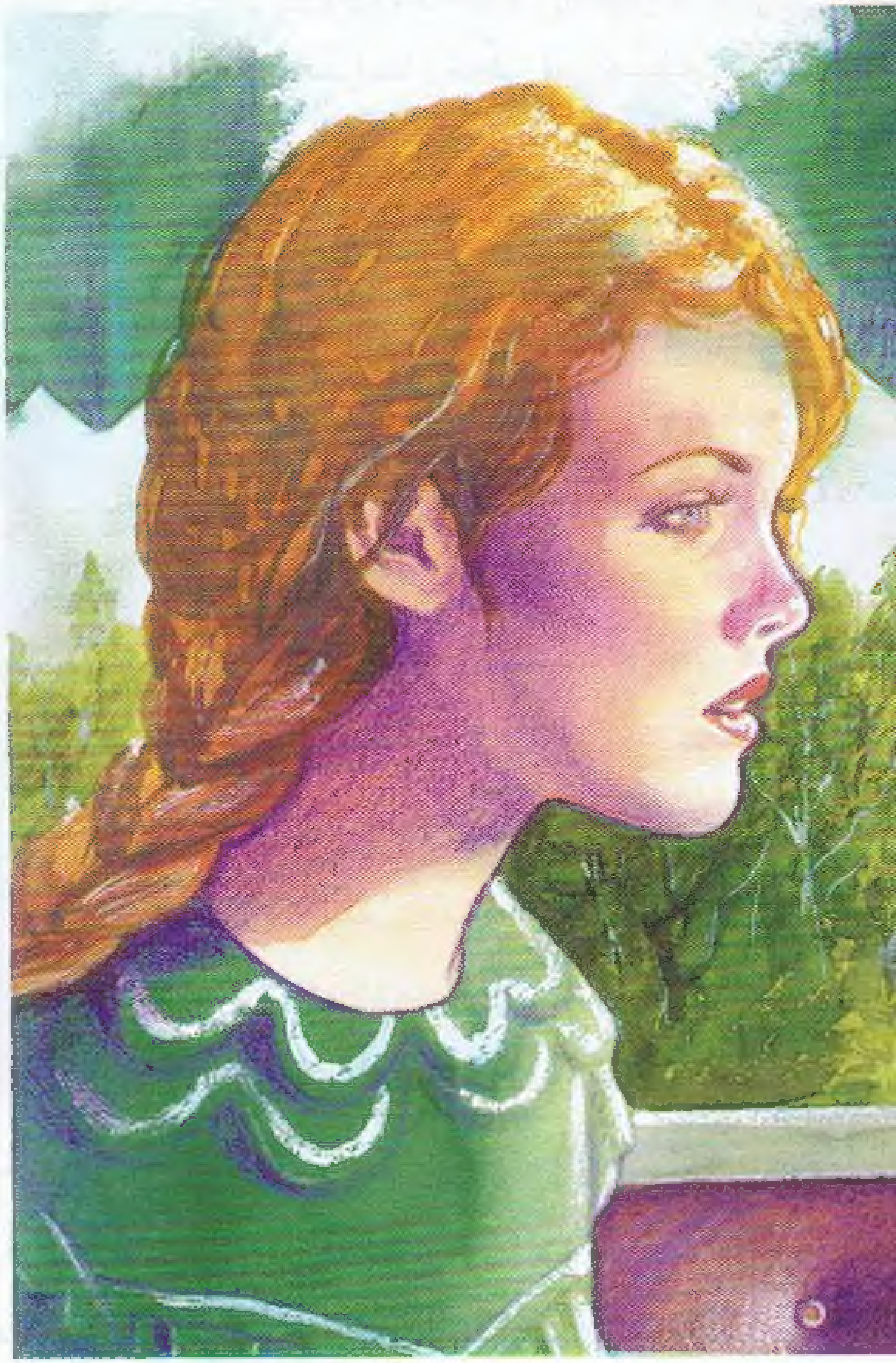
- «إِنَّ طولَ الانْتِظارِ يَدْفَعُ إِلى السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ، وَيُبَدِّدُ الأَمَلَ، وَيُطْفِئُ الْحَماسَةَ لِلْعَمَلِ، فَعَلَيْنا أَنْ نَبْدَأَ خُطْوَةً إِيجابِيَّةً نَحْوَ هَدَفِنا..»

قالَتْ برونيا: «وَماذا تَرَيْنَ؟»

قالَتْ: «تُسافِرينَ أَنْتِ إِلى باريس، وَتَلْتَحِقينَ بِكُلِّيَّةِ الطِّبِّ، وَتُنْفِقينَ مِمَّا لَدَيْنا مِنْ مُدَّخَرات، وَأَبْحَثُ أَنا عَنْ عَمَلٍ عِنْدَ أُسْرَةٍ ثَرِيَّةٍ، فَأُرْسِلُ لَكِ ما أُعينُكِ بِهِ، حَتَّى تَنْتَهي مِنْ دِراسَتِكِ، فَيَأْتي عَلَيْكِ الدَّوْرُ.. تَعْمَلينَ وَتُنْفِقينَ عَلَيَّ حَتَّى أُتِمَّ دِراسَتي.»

- «وَلِماذا أُسافِرُ أَنا أَوَّلًا؟»

- «لأَنَّكِ أَكْبَرُ مِنِّي بِثَلاثِ سَنَوات.»



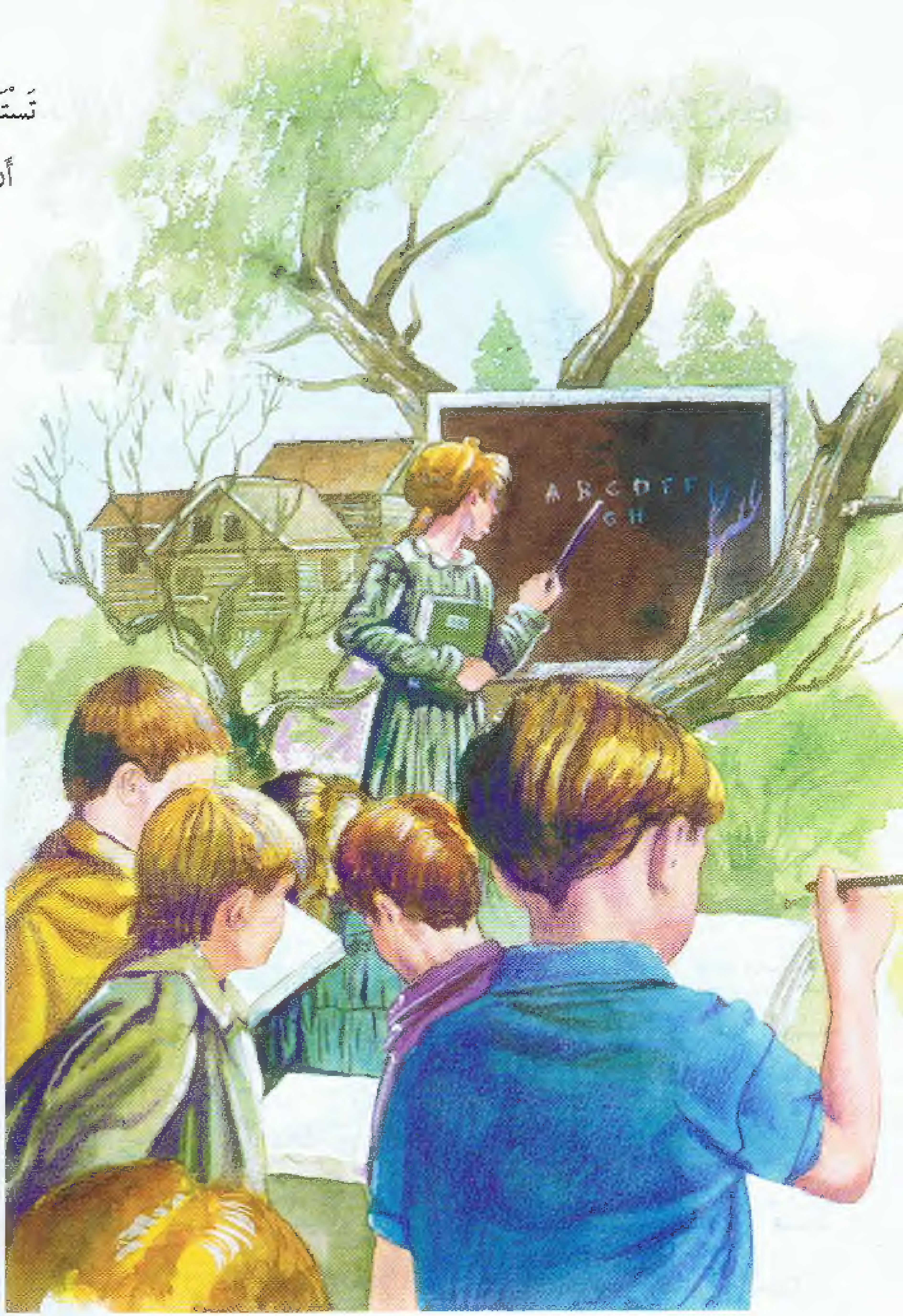
وَلَمْ يَمْضِ إِلا قَليلٌ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى سافَرَتِ الأُخْتان: سافَرَتْ «برونيا» إِلى باريس لِتَلْتَحِقَ بِكُلِّيَّةِ الطِّبِّ، وَسافَرَتْ «مانيا» إِلى الرِّيفِ البولندى لِتَعْمَلَ مُرَبِّيَةً لِلأَطْفالِ لَدى أُسْرَةٍ ثَرِيَّةٍ، لِقاءَ أَجْرٍ مَعْقولٍ، وَقَدْ وَجَدَتْ فى سَفَرِها عَنَتًا وَمَشَقَّةً: رَكِبَتِ الْقِطارَ ساعات، ثُمَّ اسْتَبْدَلَتْ بِهِ عَرَبَةً زاحِفَةً على الْجَليدِ ساعاتٍ أُخْرى، حَتَّى وَصَلَتْ إِلى بَيْتِ الأُسْرَةِ الَّتى سَتَعْمَلُ عِنْدَها. وَلَمْ تُحْسِنِ الأُسْرَةُ مُعامَلَتَها، بَلْ كانَتْ تَقْسو عَلَيْها، وَتُكَلِّفُها ما لا تُطيقُ، وَلَكِنَّها تَحَمَّلَتْ ذَلِكَ كُلَّهُ صابِرَةً، فَهُناكَ حافِزٌ داخِلِيٌّ يُعينُها عَلى الصَّبْرِ، وَيَحُثُّها عَلى الْبَقاءِ وَالتَّحَمُّلِ، كَىْ تَفِيَ بِوَعْدِها لأُخْتِها، وَتَسْتَطيعَ هِيَ -أَيْضًا- تَحْقيقَ آمالِها.

لَقَدْ كانَتْ «مانيا» تُرْسِلُ كُلَّ ما تَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلى إِخْوَتِها وَأَبيها، وَلا تُبْقى مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِها، حَتَّى إِنَّها لَمْ

تَسْتَطِعْ أَنْ تُبَدِّلَ ثِيابَها الَّتى بَلِيَتْ، وَلَمْ تَعُدْ قادِرَةً عَلى أَنْ تَقِيَها مِنْ بَرْدِ الشِّتاءِ الْقارِسِ .. وَمَعَ ذَلِكَ فَعَزيمَتُها صادِقَةٌ صامِدَةٌ لَمْ تَضْعُفْ، وَهِمَّتُها عالِيَةٌ ناشِطَةٌ لَمْ تَفْتُرْ! تَضَعُ آخِرَ طابَعٍ لِلْبَريدِ تَمْتَلِكُهُ عَلى رِسالَةٍ لأَخيها؛ لِتُطَمْئِنَهُ وَتُؤَكِّدَ لَهُ أَنَّ الظُّروفَ وَالأَحْداثَ مَهْما بَلَغَتْ قَسْوَتُها وَشِدَّتُها فَلَنْ تَسْتَطيعَ أَنْ تَقْهَرَها وَتَعوقَها عَنْ بُلوغِ غايَتِها!

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْعَمَلُ الْمُضْنى الَّذى تَقومُ بِهِ، وَلا الظُّروفُ السَّيِّئَةُ الَّتى تُعانيها- أَنْ تُنْسِيَها أَبْناءَ وَطَنِها الَّذينَ حَرَمَهُمُ الاسْتِعْمارُ الرّوسِىُّ مِنَ التَّعْليمِ، فَاخْتارَتْ عِشْرينَ صَبِيًّا وَصَبِيَّةً مِمَّنْ حَوْلَها، وَراحَتْ تُعَلِّمُهُمُ الْقِراءَةَ وَالْكِتابَةَ، مُعَرِّضَةً نَفْسَها لِخَطَرٍ جَسيمٍ، وَعِقابٍ شَديدٍ، تُنْزِلُهُ بِها السُّلْطاتُ الرّوسِيَّةُ إِنْ عَلِمَتْ بِخَبَرِها؛ فَقَدْ كانَتْ تُطارِدُ كُلَّ مَنْ يُحاوِلُ نَشْرَ التَّعْليمِ بَيْنَ جَماهيرِ الشَّعْبِ!

ظَلَّتْ «مانيا» سِتَّ سَنَواتٍ كامِلَةً تُمارِسُ عَمَلَها فى تَرْبِيَةِ الأَطْفالِ عِنْدَ تِلْكَ الأُسْرَةِ الْغَنِيَّةِ، وَتُعَلِّمُ الأَطْفالَ الَّذينَ حُرِموا فُرْصَةَ التَّعْليمِ، لَمْ تَكِلَّ فى ذَلِكَ وَلَمْ تَمَلَّ، حَتّى جاءَها الْخَبَرُ مِنْ أُخْتِها «برونيا» أَنَّها قَدْ أَتَمَّتْ دِراسَةَ الطِّبِّ، وَتَزَوَّجَتْ مِنْ طَبيبٍ شابٍّ بولَنْدِىٍّ، وَأَنَّهُما يَعْمَلانِ مَعًا، وَقَدْ حانَ الْوَقْتُ لِتَبَرَّ بِوَعْدِها، وَتَفِىَ بِعَهْدِها.



فى ذَلِكَ الْوَقْتِ كانَتِ السُّلْطاتُ الرّوسِيَّةُ قَدْ عَرَفَتْ صَنيعَ «مانيا» فى تَعْليمِ الأَطْفالِ، وَفَكَّرَتْ فى عِقابِها وَنَفْيِها مِنَ

الْوطَنِ، ولَكنَّ «مانيا» فوَّتَتْ على الاسْتعمارِ الْفُرْصَةَ، فَحزَمَتْ أمرَها، وَانْطَلَقَتْ إلى باريس.

تُرَفرِفُ عَصافيرُ الْحُلْمِ فى صَدْرِها، وتُزَغرِدُ الْفَرْحَةُ فى قَلْبِـها، فَقَدْ آنَ الأوانُ لتحقيقِ هَدَفِـها، وإنْ كانَ ثَمَّةَ شىْءٌ يُكَدِّرُ بَهْجَتَها، ويُنَغِّصُ عَلَيْها فَرْحَتَها- فَهُوَ أنَّها ستَكونُ عِبئًا على أُخْتِها وزَوْجِها!

حطَّتْ «مانيا» رِحالَها فى باريس، وَأَقامَتْ مَعَ أُخْـتِها وزَوْجِها، الَّذى كانَ سَعيدًا بِها، فَخورًا بِكِفاحِهـا، مُعْتَزًا بِصَلابَتِها. وَتَقدَّمَتْ بِأوْراقِها إلى كُلِّيَّةِ الْعلومِ، وكَمْ كانَتْ فَرْحَتُها بالِغَةً عِنْدَما قَرَأَتِ اسْمَها فى سِجِلِّ الْمَقْبولينَ! لَقَدْ دَنا هَدَفُها، وآنَ لَها أنْ تَجْنِىَ ثَمرَةَ كَدِّها!

كانَ الطَّريقُ منْ بَيْتِ أُخْتِهـا إلى كُلِّيَّتِها طَويلا، فَكانَتْ تَرْكَبُ عربَةً منْ طابَقَيْنِ تَجرُّهـا الْخُيولُ، تَجْلِسُ فى الطَّابَقِ الثَّانى وَتَروحُ تَتَـأَمَّلُ مـا حوْلَهـا منَ الأَشْـيـاءِ، وَمَنْ حَوْلَهـا منَ النَّاسِ، وَتَحِـنُّ حَنينًا شَـديدًا إلى وَطَنِهـا، الَّذى يَئِنُّ تَحْتَ وَطْأَةِ الاسْتِعْمـارِ، ويُحْرِمُ الْكَثيرَ منْ أَبْنائِه فُرصَةَ التَّـعْليمِ لِيَقْضوا حَياتَهُمْ فى ظَلامِ الْجَـهْلِ وتَعاسَةِ الْفَقْرِ! وتُؤَكِّدُ فيـما بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها أنَّها سَتعودُ إلَيْه يَوْمًا خادِمَةً مُخْلِصَةً، تُسَخِّرُ كُلَّ ما تَعَلَّمَتْهُ فى سَبيلِه، وتَبْذُلُ طاقَتَها منْ أَجْلِه.

إنَّها تَضيقُ بِبُطْءِ الْخُيولِ فى سَيْرِها، وتَرى فى ذَلِـكَ مَضْيَعَةً لِوَقْتِها، فَلْتَتَّخِذْ سكَنًا قَريبًا منْ كُلِّيَتِـها، ولَكِنَّ أُخْتَها وَزَوْجَها يُجادِلانِها فى ذَلكَ جِدالا عَنيـفًا، ويَرْفُضانِ فكْرَةَ الابْتِعادِ عَنْهُما رَفْضًـا قاطِعًا، فَما زالَتْ بِهِما حَتَّى رَضِـيَا، وَانْتَقَلَتْ «مانيا» لِتَعيشَ فى غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ، فى حىٍّ قَريبٍ منَ الْكُلِّيَّةِ.

كانَتْ ميـزانِيَّتُها لا تَتَجـاوَزُ الْمائَةَ فرَنْكٍ فى الشَّهْـرِ، هِىَ ثَمَنُ الطَّعامِ وَالثِّيابِ، وَالْكُتُبِ وَالأَوْراقِ، وَأَجْـرُ الْغُرْفَةِ، وَرَسْمُ الالْتِحاقِ بِالْكُلِّيَّةِ.. ولَكنَّها لَمْ تَـجِدْ فى ذَلكَ بَأْسًا، ولَمْ تَضِقْ بِه ذَرْعًا، فَبِعَزيمَتِها وَإِصْـرارِها تَسْتَطيعُ تَدْبيرَ أَمْرِها.. كانَتْ تَسيرُ على قَدَمَيْها فى ذَهابِها إلى الْكُلِّيَّةِ وَإِيابِها مِنْها حَتَّى تَقْتَصِدَ أَجْرَ الْحافِلَةِ، وَتَلْجَأُ إلى الْمَكْتَباتِ الْعامَّةِ لِتُوَفِّرَ ثَمَنَ الْكُتُبِ، وثَمَنَ الْوَقودِ الَّذى تُضىءُ بِه مِصْباحَها، وتَقْضى كَثيرًا منْ أَيَّامِها لا تَذوقُ غَيْرَ الْخُبْزِ وَالزُّبْدِ!

لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ بالَ هَذِه الطَّالِبَةِ الْبولَنْدِيَّةِ شَىْءٌ، غَيْرُ الْمحاضَـراتِ وَالْمَعامِلِ وَالتَّجارِبِ وَالْكُتُبِ، أَمَّا ما عَدا ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ حَيِّزًا كَبيرًا منْ تَفْكيرِها.

وكَانَ الطُّلَّابُ يَنْظرونَ إلَيْها، ويَـتَأَمَّلونَ ويَتَساءَلونَ عَنْ هَذِه الطَّالِبَةِ الْجادَّةِ، الَّتى تَحْرِصُ عَـلى الْجُلوسِ فى الْمَقْعَدِ الأَوَّلِ فى الدَّرْسِ، وَتَرْتَدى ثِيابًا قاتِمَةً قَديمَةً، وَيُتَوِّجُ رَأْسَها شَعْرٌ أَشْقَرُ ناعِمٌ جَميلٌ.

لَقَدْ كانَ طُموحُها رائعًا، وكانَتْ صَبورًا عَنيدَةً، تَسْعَى إلى هَدَفِها بِكُلِّ ما أوتِيَتْ مِنْ قُوَّةٍ، حَتّى حَصَلَتْ عَلى دَرَجَتَيْنِ عِلْمِيَّتَيْنِ: الأولى فى الطَّبيعَةِ عامَ ١٨٩٣م وَالثّانِيَةُ فى الرِّياضِيّاتِ عامَ ١٨٩٤م.

قَطَعَتْ «مانيا» الشَّوْطَ الأَوَّلَ فى تَحْقيقِ هَدَفِها، ولَكِنَّها لَمْ تَقْنَعْ بِهِ؛ لأَنَّ طالِبَ الْعِلْمِ مَنْهومٌ لا يَشْبَعُ، فَراحَتْ تُفَكِّرُ فى الشَّوْطِ الثّانى .. مَلَكَتْ لُبَّها الأَبْحاثُ وَالتَّجارِبُ، فكانَ لِزامًا عَلَيْها أَنْ تَبْحَثَ عَنْ مَعْمَلٍ تَسْتَطيعُ أَنْ تُمارِسَ فيه عَمَلَها .. إنّها لا تَعْمَلُ فى إحْدى الْكُلِّيّاتِ حَتّى تَسْتَطيعَ الاسْتِفادَةَ مِنْ مَعامِلِها، وَلَيْسَتْ غَنِيَّةً كَى تَسْتَطيعَ أَنْ تُنْشِئَ مَعْمَلا خاصّا بِها، فَماذا تَفْعَلُ؟

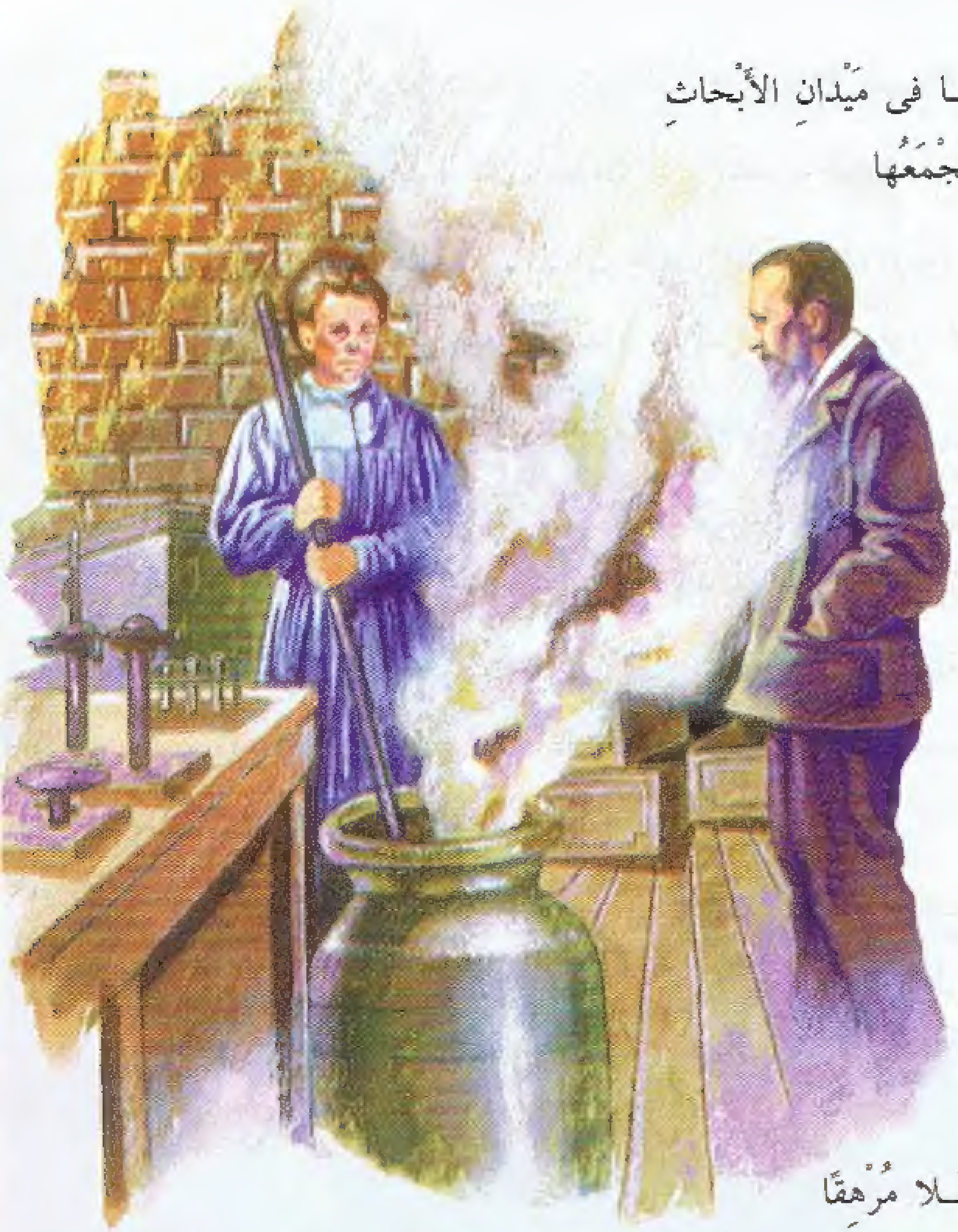
عَرَفَ مُشْكِلَتَها أُسْتاذٌ بولَنْدى، كانَ قَدْ جاءَ إلى باريس لإلْقاءِ بَعْضِ الْمُحاضَرات، وَكانَ يَعْرِفُ ذَكاءَها، وَقُوَّةَ تَحَمُّلِها، وَطولَ مُعاناتِها، فَقَدَّمَها إلى أُسْتاذٍ فَرَنْسِيٍّ صَديقٍ لَهُ، كانَ يَعْمَلُ مُديرًا لِمَدرسَةِ الطَّبيعيّات، عَلى أَنْ تَكونَ مُساعِدَةً لَهُ، كانَ هَذا الأُسْتاذُ الْفَرَنْسِيُّ الْمَوْلِد وَالنَّشأَة هُوَ «بيير كورى»، الَّذى يَنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةِ عُلَماءَ مُتَميِّزين، ويَلْفِتُ النَّظَرَ بِهُدوئِه وَذَكائِه اللَّمّاحِ، وَشَخْصِيَّتِه الَّتى تُوحى بِالثِّقَةِ وَالأَمان، فَلَمْ يَمْضِ عامٌ واحِدٌ حَتّى تَآلَفَ قَلْباهُما، وَأَصْبَحا زَوْجَيْنِ، واتَّخَذَتِ اسْمَهُ - كَما هِىَ الْعادَةُ فى المجتمعات الغربية- وَغَدا اسْمُها «مارى كورى».



لَمْ تَكُنْ «مارى» تَمْلِكُ ثَوْبًا لِلزِّفاف، فَلَيْسَ عِنْدَها غَيْرُ ثَوْبِ الْمُخْتَبَرِ، فَطَلَبَتْ مِنْ والِدَةِ زَوْجِها أَنْ تَمْنَحَها ثَوْبًا، تَسْتَطيعُ أَنْ تُحَوِّلَهُ بَعْدَ الزِّفافِ إلى ثَوْبٍ عادِيٍّ، يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ. وَلَكِنَّ أُخْتَها «برونيا» أَسْرَعَتْ فَأَحْضَرَتْ خَيّاطَةً وَقُماشًا كُحْلِيَّ اللَّوْن، وَصَنَعَتْ «لمارى» ثَوْبًا، كانَتْ فيهِ آيَةً فى الأَناقَةِ وَالْبَساطَةِ، كَما كانَتْ تَرِفُّ عَلى وَجْهِها السَّعادَةُ، وَتُطِلُّ مِنْ عَيْنَيْها الْهَناءَةُ!

وَكانَ مِنْ بَواعِثِ سَعادَتِها أَنْ حَضَرَ والِدُها حَفْلَ زَواجِها، وَقَدْ تَحَدَّثَ إلى والِدَىْ «بيير»، وَقالَ لَهُما :

- «إنَّ مارى سَوْفَ تَكونُ جَديرَةً بِمَحَبَّتِهِما، وَرِضاهُما؛ فَهِىَ مُنْذُ وُلِدَتْ لَمْ تُسَبِّبْ لَهُ تَعَبًا وَلا مَشَقَّةً!».



وبَدأَتْ حَياةُ الزَّوْجَيْنِ الْعـالِمَيْنِ فى شَقَّةٍ مُتَواضِعَةٍ، وانْطَلَقـا فى مَيْدانِ الأَبْحاثِ والتَّجارِبِ فى مَجالِ الْعلومِ، يُرَفْرِفُ بَيْنَهُـما الْحبُّ السّامي، وتَجْمَعُها الْمَوَدَّةُ الْخَلاقَةُ، الَّتى تُحَوِّلُ الْفِكْرَ إِلى طاقَةِ فِعْلٍ بَعيدَةِ الْمَدى.

وكانَ «بيير» قَدِ اسْتَطاعَ أَنْ يَحْصُـلَ مِنْ مَدْرَسَةِ الطَّبيعيّاتِ عَلى إِذْنٍ بِاسْتِخْدامِ مَخْـزَنٍ صَغيرٍ فى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ لِيَكونَ مَعْمَلا لَهُما.

وبَدأَتْ «ماري كوري» تَجارِبَها فى هَـذا الْمَخْزَنِ الَّذى يُشْبِهُ مَغارَةً رَطْبَةً حَقـيرَةً، ولَكِنَّها لَمْ تَضِقْ بِهِ، ولَمْ تَنْفِرْ مِنْهُ، بَلْ وَجَدَتْ فيهِ أَمَلا ومُتَّسَعًا، وشَرَعَتْ تَجِدُّ فى الْبَحْثِ مِنْ حَيْثُ انْتَهى عالِمٌ قَبْلَهـا هُوَ الأُسْتاذُ «هنري بيكريل» الَّذى كانَ عَلى مَعْرِفَةٍ بِها وبِزَوْجِها.

تَلَقَّفَتْ «مـاري» ما تَحَدَّثَ بِهِ «هنـري» مِنْ مُلاحَظاتِهِ عَنِ الإِشْعاعاتِ الَّتى تَنْبَعِثُ مِنَ «اليورانيوم» مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها، وأَنَّ هَذِهِ الإِشْعاعاتِ أَقْوى تَأْثيرًا مِنَ «اليـورانيوم» ذاتِهِ، فَلَعَلَّ فيها عُنْصُرًا آخَرَ . . وراحَتْ تَعْـمَلُ مَعَ زَوْجِها، بِجِدٍّ وثَباتٍ، عَمَـلا مُرْهِقًا مُضْنِيًا، كانَتْ «ماري» تَقْضى الْيَوْمَ كُلَّهُ فى تَحْريكِ كُتَلِ «اليـورانيوم» بِقَضيبٍ مِنَ الْحَديدِ فى أَثْناءِ غَلَيانِها، وكانَتِ الأَبْخِرَةُ الْمُتَصاعِدَةُ تُحَوِّلُ الْمَكانَ إِلى جَحيمٍ، فَالدُّخانُ اللاذِعُ يُلْهِبُ الْحَلْقَ والْعَـيْنَ، ومَعَ ذَلِكَ اسْتَمَرَّ الزَّوْجانِ فى شَجاعَةٍ فائِقَةٍ، وصَبْرٍ مُسْتَميتٍ سَنَواتٍ طَويلَةً، لَمْ يَفْقِدا الأَمَلَ، ولَمْ يَقْطَعا الرَّجاءَ، حَتّى كانَ يَوْمٌ.

شَعَرَ الزَّوْجانِ بِالإِرْهاقِ الشَّديدِ، فَآثَرا أَنْ يَمْضِيا إِلى بَيْتِهِـما الْمُتَواضِعِ؛ لِيَنالا قِسْطًا مِنَ الرّاحَةِ، ولَمْ يَلْبَثا إِلا قَليلا حَتّى دَفَعَهُما إِحْساسٌ غامِضٌ إِلى الْعَوْدَةِ إِلى الْمَعْمَلِ، وما إِنْ دَخَلَتْ «ماري» حَتّى صاحَتْ:

- «بيير، لا تُشْعِلِ الْمِصْباحَ!»

ثُمَّ أَضافَتْ فى مَرَحٍ طُفولِيٍّ، وبَهْجَةٍ فائِقَةٍ:

- «لَقَدْ كُنْتُ أَتَوقَّعُ دائمًا أَنْ يكونَ لَوْنُ «الراديوم» جَميلا! أُنْظُرْ . . »

لَقَدْ كانَ الاكْتشافُ ! كانَ الْحَدَثُ الَّذى انْتَظَرَاهُ طَويلا يُشِعُّ مِنْ إِحْدى زَوايا الْمَعْمَلِ.

أَعْلَنَ الزَّوْجانِ الْعالِمانِ اكْتشافَ عُنْصُرِ «الرّاديوم»، وَهُوَ عُنْصُرٌ أَبْيَضُ شَديدُ اللَّمعَانِ، تَنْبَعِثُ مِنْهُ إِشْعاعاتٌ قَوِيَّةٌ شَديدَةُ التَّأْثيرِ فى الأَجْسامِ الَّتى تَتعرَّضُ لَها، وَتَزيدُ قُوَّتُها عَنْ قُوَّةِ الإِشْعاعاتِ الَّتى تَصْدُرُ عَنِ «اليورانيوم» ما يَقْرُبُ مِن مِلْيونَىْ مَرَّةٍ، وَهُوَ الْعُنْصُرُ الَّذى تُصْنَعُ مِنْهُ الْقُنْبُلَةُ الذَّرِّيَّةُ.

تَقَبَّلَ الْعالَمُ نَبَأَ هَذا الاكْتشافِ بِقَبولٍ حَسَنٍ، وَانْهالَتِ الدَّعَواتُ عَلى الزَّوْجَيْنِ الْعالِمَيْنِ لإِلْقاءِ الْمُحاضَراتِ فى الْجامِعاتِ وَالْجَمْعِيّاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَاسْتَقْبَلَهُما رُؤَساءُ الدُّوَلِ الَّتى شَرُفَتْ بِزِيارَتِهِما.

وَفى أَثْناءِ ذَلِكَ حَصَلَتْ «مارى» عَلى دَرَجَةِ الدُّكتوراه سَنَةَ ١٩٠٣م، وَعُيِّنَ «بيير» أُسْتاذًا فى كُلِّيَّةِ الْعلومِ بِجامِعَةِ (السّرْبُون بِبَاريس)، وَعُيِّنَتْ «مارى» مُساعِدَةً لَهُ، وَحَصَلا مَعًا عَلى جائِزَةِ «نوبل» فى الْعُلومِ الطَّبيعِيَّةِ، وَمَعَهُما الْعالِمُ «هنرى» الَّذى دَلَّ «مارى» عَلى اتِّجاهِ الأَبْحاثِ لاكْتِشافِ «الرّادْيوم».

وَحِينَئِذٍ وَدَّعَ الْعالِمانِ الْمَخْزَنَ الْمَعْمَلَ الصَّغيرَ الْمُتَواضِعَ، الَّذى مارَسا فيهِ أَشَقَّ الأَعْمالِ وَأَصْعَبَها، مِنْ حَمْلِ الْمَعادِنِ وَالْوقودِ إِلى داخِلِه، وَإِشْعالِ النّارِ فى الْمَوْقِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُما -كَما تَقولُ مارى- عاشا فيهِ أَسْعَدَ سِنِي حَياتِهِما وَأَجْمَلَها، وَقَضَيا فيهِ أَيّامَهُما فى عَمَلٍ خالِصٍ، فَكانَتْ تُعِدُّ الطَّعامَ فيهِ حَتّى لا تَقْطَعَ مُلاحَظَةَ تَجْرِبَةٍ هامَّةٍ، وَكانَتْ تُمْضى النَّهارَ كُلَّهُ تُحَرِّكُ سائِلا يَغْلى بِعَمودٍ مِنَ الْحَديدِ، يَكادُ طولُهُ يَبْلُغُ طولَها . . !

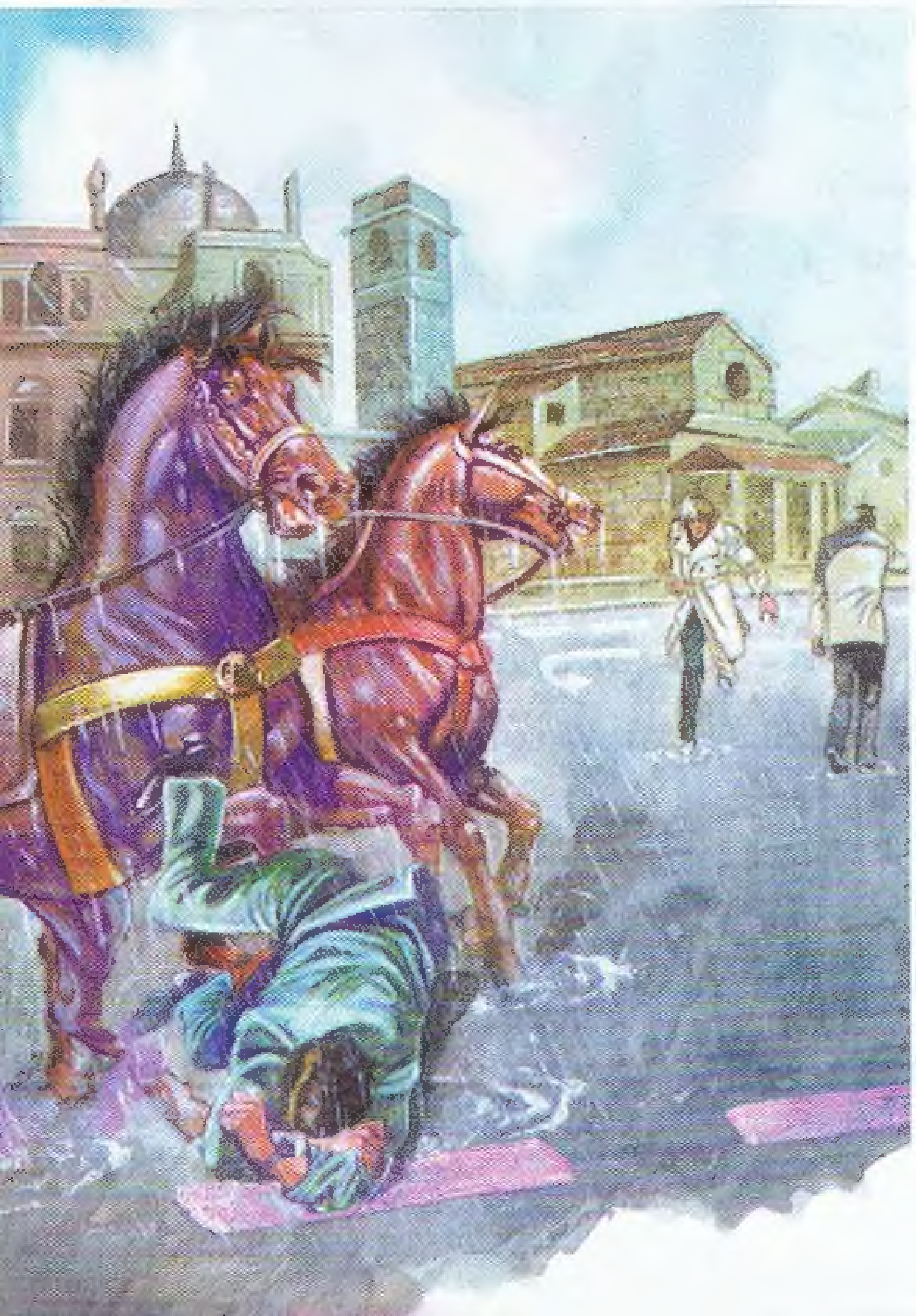
تَفَتَّحَتْ أَبْوابُ الْمَجْدِ وَالشُّهْرَةِ أَمامَ «مارى كورى»، وَلَكِنَّها ظَلَّتِ الإِنْسانَةَ الْعالِمَةَ الْمُتَواضِعَةَ، الَّتى تَضيقُ بِالشُّهْرَةِ، وَتَنْفِرُ مِنَ الصَّحافَةِ، وَتَوَدُّ أَنْ تَخْتَبِئَ مِنْها تَحْتَ الأَرْضِ، كَما كَتَبَتْ لأَخيها «چوزيف» فى ذَلِكَ الْحِينِ.



لَقَدْ حَضَرَتْ حَفْلا أُقِيمَ لاسْتِقْبالِها وَزَوْجِها فى لندن، وَكانَتْ تَرْتَدى ثَوْبًا أَسْوَدَ بَسِيطًا، وَكانَتْ نِساءُ الْحَفْلِ يَرْتَدِينَ ثِيابًا فاخِرَةً، وَحُلِيًا نادِرَةً، فَقالَتْ لِزَوْجِها حِينَ رَجَعا إِلى غُرْفَتِهِما:

- «أَتَدْرِى ما الَّذِى كانَ يَشْغَلُنِى طُولَ وَقْتِ الْحَفْلَةِ؟ لَقَدْ كُنْتُ أُحاوِلُ تَقْدِيرَ ثَمَنِ الْمُجَوْهَراتِ الَّتِى يَتَزَيَّنُ بِها النِّساءُ اللاتى حَضَرْنَ الْحَفْلَ، وَكَمْ مَعْمَلا يَتَسَنَّى لَنا أَنْ نُنْشِئَ بِثَمَنِها . . ؟»

لَقَدْ كانَ كُلُّ تَفْكِيرِها وَتَفْكِيرِ زَوْجِها مَحْصُورًا فى الْعِلْمِ وَتَسْخِيرِهِ لِخِدْمَةِ الإِنْسانِ، فَعِنْدَما عَرَضَتِ الْمَصانِعُ وَالشَّرِكاتُ الْقِيامَ بِإِنْتاجِ عُنْصُرِ «الراديوم»، وَاسْتِثْمارِهِ لِصالِحِهِما؛ فَهُما الْوَحِيدانِ اللَّذانِ يَعْرِفانِ أَسْرارَهُ -رَفَضا ذَلِكَ رَفْضًا حاسِمًا، وَاعْتَبَراهُ مِلْكًا لِلْبَشَرِيَّةِ، وَكانَ أَخْوَفَ ما يَخافانِهِ أَنْ يَقَعَ فى يَدٍ خَبِيثَةٍ تَسْتَغِلُّهُ فى التَّخْرِيبِ وَالتَّدْبِيرِ، وَلِذَلِكَ سارَعا بِإِرْسالِ أَسْرارِهِ إِلى كُلِّ مَنْ يَطْلُبُها، حَتَّى تَكُونَ مُنْتَشِرَةً فى الْعالَمِ كُلِّهِ، وَلَيْسَتْ حِكْرًا عَلى أَحَدٍ!



وَفى غَمْرَةِ الْفَرَحِ جاءَها الْحُزْنُ يَسْعى سَعْيًا حَثِيثًا سَرِيعًا؛ فَقَدْ كانَ زَوْجُها «بيير» خارِجًا مِنْ كُلِّيَّةِ الْعُلُومِ بَعْدَ اجْتِماعٍ عِلْمِىٍّ، وَكانَ الْجَوُّ مُمْطِرًا، وَبَيْنَما كانَ يَعْبُرُ الطَّرِيقَ صَدَمَتْهُ عَرَبَةٌ ضَخْمَةٌ تَجُرُّها الْخُيُولُ، فَحاوَلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِعُنُقِ أَحَدِها، وَلَكِنَّ قَدَمَهُ زَلَّتْ فَوْقَ الأَرْضِ الْمُبْتَلَّةِ، وَمَرَّتْ عَلَيْهِ الْخُيُولُ، وَأَجْهَزَتْ عَلَيْهِ شاحِنَةٌ كانَتْ تَحْمِلُ مَلابِسَ لِلْجُنُودِ!

صُدِمَتْ «ماري» صَدْمَةً قاسِيَةً، فَقَدْ فَقَدَتِ الزَّوْجَ وَالرَّفِيقَ وَالْعالِمَ وَالزَّمِيلَ، وَاعْتَصَرَ الْحُزْنُ قَلْبَها، وَكادَ يُودِى بِها، لَوْلا أَنْ تَدارَكَتْها رَحْمَةُ اللهِ، فَأَسْرَعَتْ إِلَيْها أُخْتُها «برونيا» تُعِينُها فى مِحْنَتِها، وَتَأْخُذُ بِيَدِها لِتَخْرُجَ مِنْ صَوْمَعَةِ حُزْنِها، وَكانَ أَوَّلُ ظُهُورٍ لَها حِينَ وَقَفَتْ مَكانَ زَوْجِها، حَيْثُ جَلَسَتْ عَلى مَقْعَدِ الأُسْتاذِيَّةِ الَّذِى خَلا بِوَفاتِهِ، وَبَدَأَتْ أُولى مُحاضَراتِها مِنَ النُّقْطَةِ الَّتى وَقَفَ عِنْدَها زَوْجُها، وَكَأَنَّها تَتْلُو وَصِيَّتَهُ:

- «يا مـارى، إذا حَدَثَ لأحَـدِنا مكْروهٌ فَـعَلَى الثَّـانى أنْ يَسْـتَمِـرَّ فى الطَّرِيقِ، ويُتابِعَ الْمَسيرَةَ..!»

وأثارَ ظُهورُها فَـوْقَ هَذِهِ الْمَنَصَّةِ الْعِلْمِـيَّةِ الاهْتِمـامَ؛ إذْ كانَتْ أوَّلَ امْرَأَةٍ تَقِفُ فَوْقَها فى جامِعَةِ السُّورْبون !



واصَلَتْ «مارى كورى» الْمَـسيرَةَ الْعِلْمِيَّةَ، وأهْدَتْها أكـاديمِيَّةُ الْعلومِ فى «اسـتكهولم» جـائِزَةَ «نوبل» للْمَرَّةِ الثَّـانِيَةِ سَنَةَ ١٩١١م ، تَقْـديراً لإنْجازاتِها الْمُنْفَـرِدَةِ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِها، وكانَتِ الْوَحـيدَةَ الَّتى حَصَلَتْ عَلى الْجـائِزَةِ مَرَّتَيْنِ! ولَـكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُغَيِّـرْ مِنْ طَبـيعَـتِهـا الإنْسانِيَّـةِ الْمُتَواضِعَةِ، ولَمْ يَجْعَلِ الْغُرورَ يَمْلأُ نَفْسَها، ويَخْدَعُها عَنْ واجِبِها إزاءَ الإنْسانِيَّةِ، فَاجْتَهَدَتْ فى دِراسَةِ التَّطْبيقـاتِ الطِّبِّيَّةِ لاكْتِشافِها، وتَسْخيرِهِ فى عِلاجِ الأمْراضِ الَّتى تَـفْتِكُ بِالإنْسانِ. وتَمَّ إنْشاءُ مَعْـهَدِ الرّاديوم فى باريس، الَّذى تَطَوَّرَ تَطَوُّرًا نافِعًـا، وسَعَتْ إلى إنْشاءِ مَعْـهَدٍ آخَرَ فى بِلادِها الأصْلِيَّةِ «بولندا»، وتَمَّ افْتِتاحُهُ سَنَةَ ١٩٢٥م، وأصْبَحَتْ أُخْتُها «برونيا» مُديرَةً لَهُ. ولا تَزالُ الإنْسانِيَّةُ تَجْنى ثَمَرَةَ جُهْدِ الْعالِمَةِ «مارى كورى» إذْ تَسْتَخْدِمُ «الراديوم» فى عِلاجِ السَّرَطانِ!

ويَبْدو أنَّ «مارى» لَمْ تَكُنْ تُحِبُّ لِرايَةِ الْعِلْمِ أنْ تَسْقُطَ، ولا لِرِسالَتِها أنْ تَنْتَهِىَ بِانْتِهاءِ حَياتِها، فَأعَدَّتِ ابْنَتَها الأُولَى «إبرين كورى» لِتُكْمِلَ الرِّسالَـةَ، فَقامَتْ بِها عَلى خَيْـرِ وَجْهٍ، حَتّى إنَّ مُنْجَزاتِها لا تَقِلُّ عَـظَمَةً وثَراءً عَنْ مُنْجَزاتِ أُمِّها، مِـمّا حَمَلَ الأكادِيمِيَّةَ السُّويدِيَّةَ عَلى أنْ تَمْنَحَها جائِزَةَ نوبل كذلك سَنَةَ ١٩٣٥م . أمّا ابْنَتُها الثّانِيَةُ «إيف» فَقَدِ اتَّجَهَتْ إلى الأدَبِ، وكَتَبَتْ سيرَةَ أَبَوَيْها.

وفى الرّابِعِ عَـشَرَ مِن يوليو عـامَ ١٩٣٤م وَدَّعَتْ «مارى كـورى» الْحَياةَ، بَعْـدَ مَرَضٍ شَـديدٍ بِسَبَبِ تَعَـرُّضِها الْمُـسْتَمِرِّ لإشْعاعاتِ الرّادْيوم، ذَلِكَ الْعُنْصُرُ الَّذى أكْسَبَها الْمَجْدَ والْفَخارَ.

كانَ السَّبَبَ الْمُـباشِرَ فى وَفاتِهـا. وقَبْلَ أنْ يُهيلُوا عَلَيْها التُّـرابَ نَثَرَتْ عَلَيْها أُخْـتُها «برونيا» حَفْنَةً مِـنْ تُرابِ وَطَنِها الْحُرِّ «بولندا» !

هذه السلسلة فى أسلوبها القصصى الشائق، ولغتها السهلة الرائقة، تبرز دور المرأة على مر التاريخ الإنسانى فى مجالات الحياة المختلفة، من خلال نماذج باهرة قهرت الصعاب التى اعترضتها، وتخطت العقبات التى وقفت فى طريقها حتى بلغت غايتها، وأجرى الله الخير على يديها للإنسانية كلها، فكانت القمة والقدوة فى آن واحد.

عناوين السلسلة :

- زبيدة
- بلقيس
- مارى كورى
- فلورانس نايتنجيل
- هيلن كيللر
- ماريا مونتسورى



سفير ٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص.ب : ٤٢٥ الدقى
ت : ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس : ٣٤٨٠٢٩٩